(هيثم الموسوي)

إلا مرّة أو مرّتين. نذهب إلى مصطفى، الذي تحيط الأجهزة المعدنية برجليه. طريح الفراش لكن لديه رغبة عارمة في الكلام، إنما عن ابنه، فيختصر بالآتي: «لا شيء يواسيني، الآن، رغم إصابتي، والتي يمكن أن تصبح عاهة دائمة، سوى وجود ابني في الجبهة... هو يمثّلني هناك، وإن استشهد، فسأرفع رأسي عالياً ولا حول ولا قوة إلا بالله». مصطفى وولده ليسا حالة نادرة في الضاحية، فضلاً عن الأرياف، في الجنوب والبقاع على حد سواء، حيث البيئة اللصيقة بحزب الله. كثيرة هي الأسماء التي ستسمعها عن حالات مشابهة.

هذه هي أجواء الضاحية اليوم. ربما تكون هذه الحالة «عادية» عند أبناء تلك البيئة، بكل ما تحمل من مفردات الاستعداد للتضحية، ولكنها حتماً هي ليست كذلك عند من هم خارجها. سيكون من الطبيعي جدّاً ألا يستوعب البعض وجود نمط كهذا من الاجتماعيّات الإنسانيّة. قبل سنوات طوال، كان لدى حزب الله أفراد يعملون في الاستقطاب. مهمتهم تقريب الناس من الحزب. أصبح هذا من الماضي. يمكن القول إن الآية قد انقلبت تماماً. أصبح الحزب يحاول التخفيف من حماسة الناس بالانضمام إليه. ربما يكون أعداء الحزب قد أفادوه في هذه المسألة، بعدما جعلوا بيئته تشعر أنها «مهددة بوجودها... خصوصاً خلال السنوات العشر الأخيرة». هذا ما قاله مصطفى حرفيّاً. ليس غريباً أن تسمع بعض الشعارات الدينية، الشيعية، مثل «لبيّك يا زينب» أو «دفاعاً عن المقدسات». الوالد الجريح يعلم أنه «مهدور الدم سواء قاتل في سوريا أم لا، سواء كان هناك حزب الله أم لم يكن». هذه الأيام تعيش الضاحية الجنوبية لبيروت موجة حماسة جديدة تجاه الحزب. تأجّجت المشاعر، مجدداً، بُعيد اغتيال 6 من كوادره وعناصره في منطقة القنيطرة السورية. فعلتها هذه المرّة مروحيّة إسرائيلية. طالبو «رأس الحزب وبيئته» أصبحوا كثراً، وفي أكثر من اتجاه، ولهذا، سيكون من المألوف أن تجد جموعاً إضافيّة من الشبّان، طالبة الانتساب، عند أبواب المساجد ومراكز الحزب في مختلف المناطق.

قبل دخول الحزب سوريا، كانت موجة انتساب هائلة قد تضاءلت نسبياً، امتدت من بعد حرب تموز 2006 إلى سنوات لاحقة عدّة. حصل الأمر عينه بعد تحرير جنوب لبنان عام 2000. قبل ذلك شهد الحزب «هبّة» مماثلة إثر استشهاد نجل الأمين العام لـ«حزب الله» السيّد حسن نصر الله (هادي) عام 1997. هكذا، لقد «أجّج» الحزب ثقافة بين الناس قوامها أن مفردة «الإنجازات» لا تقتصر على التحرير والنصر العيني المباشر، بل إن التضحية هي بحد ذاتها إنجاز. ربما هذا ما يُفسّر موجات حماسة الانضمام إليه بُعيد كل نصر (تحرير) أو استشهاد (قادة وأفراد). أكثر ما يلفت الانتباه، في الضاحية تحديداً، أن تلك الظاهرة (حماسة الانضمام للحزب) قد طاولت أولئك الشبّان الذين كانوا، لسنوات خلت، لا يجيدون سوى التسكّع على الطرقات. هؤلاء الذين كان يصفهم البعض بـ«الزعران»، شريحة تجدها في كل بيئة ومجتمع. بعض هؤلاء كانوا لا يشعرون بودّ تجاه الحزب أصلاً. الحزب، بالنسبة إليهم، عائق أمام «تلطيش» الفتيات أو تعاطي الممنوعات. علي، الذي أصبح يحمل الآن اسماً جهاديّاً، هو سراج، أحد هؤلاء. يُحدّثك عن رفاق له فعلوا ما فعله. أصبحوا يرتادون المسجد، تغيّر سلوكهم، وكل ما يريدونه «أن تُقبل طلباتهم». رأى علي، ومن مثله، خلال الأعوام الماضية، صور الكثير من الشهداء تزداد يوماً بعد آخر. يعرفون الكثير منهم عندما كانوا بينهم، وبالتالي: «ونحن مش أحسن منهم».

من أدبيات حزب الله، التي أصبحت بمثابة القول الخالد في إعلامه، كلمة للشيخ راغب حرب، الذي اغتالته «إسرائيل» في ثمانينيات القرن الماضي... يقول: «دمُ الشهيد إذا سقط فبيد الله يسقط، وإذا سقط بيد الله فإنه ينمو، ولذلك نجد أنه يستمر حياً، يصبح شاهداً، يكبر وينتشر في الأرض».

> **يتذكر كثيرون عملية الشهيد أمثل حكيم التي أودت بـ13 إسرائيلياً**

تجرأوا وقاتلوا وقتلوا العشرات من الاسرائيليين، في زمن كان فيه الأهالي يحاولون إخفاء أي اثر قد يوحي بأنهم من رحم المقاومة، حتى أن بعضهم غيّر أسماء أولاده التي توحي بالثورة قناعة بأن الاحتلال باق، وهو الزمن عينه الذي اغتيل فيه شهيدان من البلدة عينها لأن مواقفهما كانت ضد الاحتلال وهما السيد عبد اللطيف الأمين ومحمد خليل حب الله».

تحدّث أبناء البلدة حينها كثيراً، ولو بصوت منخفض داخل بيوتهم المغلقة جيداً، عن أن عدداً كبيراً من الجنود الاسرائيليين قتلوا في العملية التي نفذها الشهيد أمثل ورفاقه، «سعادة لا توصف وقتها، مع دموع سخية جداً ذرفها أبناء البلدة على شهيدهم الأول، ولتشييعه قصة أخرى، تروي كيف انتصر شهيد بكسره قاعدة الخوف الذي صنعه الاحتلال على مدى سنوات، وكأن هذه الدماء غسلت جبلاً من الذنوب التي بذرتها الهزائم العربية».

لاستشهاد أمثل حكاية أخرى في قرية مجاورة: «عندما نقل جنود العملاء جثته الى القرية وحاولوا دوسها بأرجلهم أمام ضابط اسرائيلي، لعلهم يحظون برضاه، فما كان من الأخير الا أن أبعدهم وتقدّم وألقى التحية لجثمان الشهيد، قائلاً هذه التحية للذي يدافع عن أرضه وبلده».

كان دخول الجيش الاسرائيلي الى القرى الجنوبية سهلاً جداً، فالأمر يحتاج الى الوقت الذي ستسلك فيه الدبابات المجنزرة طرق وأودية القرى الجنوبية. بعد «عملية الأسيرين» عام 1986 في بلدة كونين، دخلت الدبابات المجنزرة بسرعة الى القرى التي كانت قد انسحبت منها في قضائي بنت جبيل ومرجعيون، والطائرات المروحية تحلّق على مستوى منخفض جداً، يومها سلّم العشرات من شبان المنطقة أنفسهم، لمجرد أن العدو طلب ذلك، كان الخوف سيد الموقف، «كنا انهزاميين نفسياً ومعنويين، حواجز نفسية بيننا وبين فكرة الانتصار خلقتها هزائم العرب منذ عام 1948 خصوصاً في المنطقة الحدودية مع فلسطين المحتلة، كان من المستحيل التفكير بالنصر، وكان العدو الاسرائيلي يدوس بأقدامه كلّ القرى من دون أن تطلق رصاصة واحدة، حتى بدأت دماء الشهداء تسقي تراب القرى، كنا نرى الدموع في عيون النساء والأطفال والرجال الذين لم يحملوا السلاح يوماً، والذين كانوا، قبل هذه الدموع، يطالبوننا بالامتناع عن المجازفة» يقولها أحد المقاومين، لافتاً الى أن «الدماء الأولى خرقت جدار الهزيمة، ومن خلالها عرفنا أن العدو يمكن أن ينهزم، لذلك كان مشهد التشييع أمراً مختلفاً زرع في نفوسنا أمل النصر في زمن الهزائم، وهو نفسه اليوم يؤكد لنا أن المجد لبلدنا لا كان ولن يكون الا بدماء هؤلاء».

الأمر نفسه تكرّر مع بداية دخول رجال المقاومة الى سوريا لمواجهة خطر الإرهاب التكفيري الآتي الينا «شعرنا بأن بعض أبناء منطقتنا لا يتقبلون الأمر، ويعزّ عليهم استشهاد أولادهم في سوريا، لكن سرعان ما تبدّل ذلك. فقد بدأ الأهالي يقدمون كل شبابهم للمشاركة في القتال، وبعد تشييع كل شهيد يزداد عدد المتطوعين للمشاركة، حتى أن أحد أبناء المنطقة، وهو وحيد لأهله، أصرّ على المشاركة في القتال، لكن حزب الله رفض ذلك بشدة، الى أن حضر والداه وطلبا بإلحاح عدم منع ولدهما من المشاركة، وقدما تعهداً شخصياً بأنهما يصرّان على ذلك».